International Journal of Psychosocial Rehabilitation, Vol. 26, Issue 01, 2022
ISSN: 1475-7192

The psychology of sarcastic discourse in ancient Algerian literature Ibn Mahrez Al-Wahrani as a Sample

KARDAN ELMILOUD [1]

[1)] Faculty of Literature and Languages - University of Tissemsilt Literary and Critical Studies Laboratory (Algeria)

Received: 11/2022 **Published: 11/2022**

Abstract:

sarcasm is a psychological phenomenon within a dynamic and changing social framework, so the production of satirical discourse actually expresses a psychological secrets centered in the productive self, and in all of this it is the result of multiple reasons and factors, and as Arabic literature has preserved for us poetic and prose names in the field of irony, such as Abu Al-Ala Al-Maarri and Bashar Ibn Bard and Badi' al-Zaman al-Hamadhani, the ancient Algerian literature records a name that is no less important than these, and we mean Rukn al-Din Ibn Mahrez al-Wahrani.
Who isIbn Mahrez al-Wahrani? What are the manifestations of satirical discourse in its literary impact? What are the reasons and motives for that?

Keywords: psychology - Ibn Mahrez al-Wahrani - sarcasm - discourse - ancient Algerian literature.

1) mouloudradwane@hotmail.com

سيكولوجية الخطاب الساخر في الأدب الجزائري القديم ابن محرز الوهراني نموذجا

قردان الميلود [1]

[1] كلية الآداب واللغات– جامعة تيسمسيلت مخبر الدراسات النقدية والأدبية (الجزائر)

الملخص:

السخرية ظاهرة نفسية ضمن إطار اجتماعي متدافع ومتغير، لذلك فإن إنتاج الخطاب الساخر يعبر في الحقيقة عن مخبوءات سيكولوجية تتمركز في الذات المنتجة ، وهو في ذلك كله نتيجة لأسباب وعوامل متعددة، وكما حفظ لنا الأدب العربي أسماء شعرية ونثرية في مضمار سخرية مثل أبي العلاء المعري وبشار بن برد وبديع الزمان الهمذاني، فإن الأدب الجزائري القديم يسجل اسما لا يقل أهمية عن هؤلاء ونقصد به ركن الدين ابن محرز الوهراني.

فمن هو ابن محرز الوهراني ؟ وما هي تمظهرات الخطاب الساخر في أثره الأدبي؟ وماهي أسباب ودوافع ذلك؟

الكلمات المفتاحية: سيكولوجيا– ابن محرز الوهراني– السخرية– الخطاب– الأدب الجزائري القديم.

مقدمة:

ما أكثر العلماء و الأدباء الذين ظلمهم زمانهم، و ما أشد مرارة هذا الظلم إذا كان من ذوي القربى، و إن كان لمقولة لا كرامة لنبي بين قومه أن تنطبق على أحد من هؤلاء المظلومين فلا شك أنه ابن محرز الوهراني، هذا العالم الفذ، الكاتب المبدع، و الأديب الساخر، الذي لا يجاريه في سخريته إلا الجاحظ، و لا ينافسه أحد في مقاماته إلا بديع الزمان الهمذاني.

لقد ترجم لهذا العالم الفريد العديد من أكابر العلماء، سواء علماء زمانه أو في الأزمنة التي تلت وفاته، غير أن أبناء جلدته من الجزائريين سكتوا عنه –كعادتهم– مثلما سكتوا عمن قبله من العلماء و المفكرين، و المبدعين الذين تلقفتهم أقلام و محابر المستشرقين وأبناء العمومة و لهم الفضل في ذلك.

لا أجد وصفا دقيقا لهاته الشخصية النابغة سوى ذلك الوصف الذي وصفه به الدكتور عبد المالك مرتاض حينما قال: ذلك المجهول.

ابن محرز الوهراني ابو عبد الله محمد بن محرز بن محمد الوهراني الملقب بركن الدين، أبصر النور في غرب الجزائر، و في مدينة وهران على وجه التحديد، لم يحدد المؤرخون تاريخ ولادته بينما تذكر المصادر أنه عاش توفي في القرن السادس الهجري–الثاني عشر ميلادي– و توفي 575هـ /1179 ، و تذهب بعض المصادر الى أنه ولد على الأرجحفي عهد الدولة المرابطية في بداية القرن السادس الهجري، و يبدوا أن الوهراني قد عاش شطرا من عمره تحت سلطة هذه الدولة، و شهد سقوطها و استلاء الموحدين على عرشها، و من ثم قيام دولة الموحدين الجديدة على يد المهدي بن تومرت 515هـ

ترجم له العديد من المؤرخين لعل أبرزهم ابن خلاكان في الوفيات ، و الصفدي في الوافي بالوفيات، و السيوطي في الكنز المدفون، و غيرهم كثير، أما المحدثون فقد ترجم له محمد كرد علي في المقتبس و خير الدين الزركلي في الأعلام ، و فريد وجدي في دائرة معارف القرن العشرين، وعادل نويهض[1] (01 (

و عبد المالك مرتاض في كتابه فن المقامات في الأدب العربي.

تاقت نفس الوهراني لطلب العلم و مدراسته، فرحل عن وهران و فارق الديار والأحبة قاصدا القاهرة، و عرج أثناء رحلته بجزيرة صقلية، ولم يطل به المقام بالقاهرة فسرعان ما زهد فيها، وقصد دمشق ليستقر بها

[1] عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر- مؤسسة نويهض الثقافية- بيروت- لبنان- ط02- 1980- ص 350.

نهائيا، و يتولى الخطابة في قرية تسمى دارية في ضواحي دمشق، ولزمها إلى أن وفاه الأجل سنة 575هـ الموافق لسنة 1179م.

آثاره:

خلف ابن محرز الوهراني منامات و مقامات و رسائل، جمعها وحققها كلها كل من الأستاذين ابراهيم شعلان و محمد نغش، تحت عنوان منامات الوهراني ومقامات و رسائل، و قد جار الوهراني بل و تفوق على معاصريه كالحريري في كتاباته المقامات، و ذلك لخلوها من جانب التكلف و التصنع الذي وسم كتابات ذلك العصر بصفة عامة، وفن المقامات بصفة خاصة، و جاءت مقاماته على سليقته في قالب فني بديع و راق، ينأى فيها بنفسه عن الصنعة اللفظية والاسفاف في تطويع اللغة.

منامات الوهراني و مقاماته و رسائله تقع في نحو أربع و أربعين نصا بين مقام و منام و رسالة .

فأما المقامات فثلاثة :

1–المقامة الاولى في بغداد : و التي حاول فيها الوهراني للتعرض إلى بعض المسائل السياسية المتعلقة بمجال الحكم و الحكام، كتحدثه عن سيرة عبد المؤمن بن و آل أيوب، و في ذلك تبرم و سخط من الكاتب اتجاه الأوضاع السياسية المتردية التي كان يعيشها المجتمع الإسلامي عصر المماليك لما فيه من ظلم و استبداد و طبقية فاضحة .

2–المقامة الثانية في صقلية : و فيها نهج ابن محرز منهج الاعتدال، فقصرها على مدح بعض الرجال في أحد المجالس .

3–المقامة الثالثة في شمس الخلافة : أطلق ابن محرز الوهراني العنان لقلمه الساخر، و لسانه السليط، فعرى بعض المظاهر الاجتماعية المنحرفة التي كانت سائرة في عصره ،كدعاء بعض الجهلة من الناس التفقه و التصوف، و غيروا المفاهيم الاجتماعية من حث على العمل و الاجتهاد إلى التواكل و التقوقع السقيم، فلم يجد الوهراني بدا من أن يشهر سيف السخرية ضد هذه الفئة الناشزة من المجتمع .

- **سيكولوجيا الخطاب الساخر في مقامات الوهراني :**

تفرد الوهراني بخاصية أسلوبية في الكتابة فقد حاك في مقامات كتاب القرن الرابع هجري و سجع المقامات، بيد أنه نأى بنفسه عن الوقوع في فخ الصنعة المتكلفة، فجاءت كتاباته عفوية، تتدفق بالحيوية و التجديد و لعل القارئ لمقامات الوهراني يلمس البون الشاسع بينه و بين الهمذاني، و الحريري، والقاضي الفاضل و ممن سبقه أو عاصره من الكتاب المجدين.

إن التفرد الذي نعنيه في كتابات الوهراني هو أسلوب السخرية اللاذعة، و التهكم المقذع، و النقد السليط، الذي يخفي وراءه رغبة نفسية جامحة في الإصلاح الاجتماعي أو إشباع نفسي عما لقيه من زمنه من نكران وعدم اعتراف بنبوغه ومكانته المعرفية التي تبوؤه لتقلد أعلى المراتب، كيف لا وهو يرى بعينيه من هم أقل منه شأنا، يرتقون في المناصب، لذلك لم يسلم من سوط سخريته الجارح علماء زمانه، و لا أطباءه و لا فقهاءه، ولا قضاته، كما سخر من أدعياء التصوف و من جهلهم، و اختزال الدين في اللحى الطويلة والمكوث في المساجد دون سعي في الأرض لتحصيل الرزق، و لذلك على الوهراني الكثير من الانحرافات الاجتماعية و السلوكات السلبية التي كانت تنخر أسس المجتمع و تسيئ للدين إساءة بالغة .

و أثنى ابن خلكان على ابن محرز الوهراني و اعترف بمقدرته البالغة في الكتابة، وخفة دمه وسرعة بديهيته، فقال في كتابة وفايات الأعيان: أحد الفضلاء الظرفاء، عدل عن طريق الجد، و سلك طريق الهزل، وعمل المنامات والرسائل المشهورة به، و فيها دلالة على خفة روحه و رقة حاشيته، و كمال ظرفه، و لو لم يكن له فيها إلا المنام الكبير لكفاه، فانه أتى فيه بكل حلاوة، و لولا طوله لذكرته [2]

أما الصفدي فقد ترجم له في الوافي بالوفيات بقوله: – في إشارة واضحة لأسلوبه الساخر في الكتابة– أحد ظرفاء العالم و أدبائهم سلك ذك المنهج الحلو والأنموذج الظريف، و عمل المنام المشهور، و على الجملة ماعاد يسلم من شر لسانه أحد ممن عاصره، و من طالع ترسله وقف على العجائب و الغرائب. [3]

– السخرية و التهكم في كتابات ابن محرز الوهراني :

بلغ الوهراني مبلغا عظيما في فن السخرية و التهكم بمعاصريه، و استطاع بمقدرته الفائقة العجيبة ترويض مطية السخرية و امتطائها باقتدار، فقد كان يمزج في كتاباته بين أسلوب الترسل، من احترام للدباجة، و

[2] -أبو العباس شمس الدين ابن خلكان: وفيات الأعيان و أنباء الزمان، تحقيق إحسان عباس، مج 03، دار صادر، بيروت، 1978، ص385 -

[3] الصفدي: الوافي بالوفيات ص 764/696. -

المراعات للألقاب على سبيل السخرية و التهكم ، و لم يكن يخش في ذلك انتقام وزير، أو سخط أمير، و كثيرا ما لجأ الى الاحتجاج بالقرآن الكريم و الأحاديث النبوية الشريفة، و إفحام خصومه، و هو بصدد السخرية و التعريض بهم، و قد اكتوت شرائح واسعة من معاصريه بنار سخريته- على اختلاف منازلهم الاجتماعية و السياسية و مستوياتهم العلمية- ولم يشفع لهؤلاء عند الوهراني لا علم و لا منصب و لا جاه، فقط تقلب كثير منهم على سفود سخريته، وساعده في ذلك جرأته المدهشة في توجيه سهام النقد الساخر لكل من لم يرقه سلوكه، أو ممن وقف حجر عثرة في طريق طموحه، وهذه طائفة ممن تجرعوا علقم سخرية الوهراني و تهكمه.

أ/ الأمراء و الملوك :

لقد سار ركن الدين الوهراني على خطى ابن زيدون في رسالته الموسومة بالتوابع و الزوابع التي خط جزءا منها على لسان بغلته، و هو الأمر نفسه الذي صنعه الوهراني في رسالة كتبها إلى الأمير عز الدين موسك –خال صلاح الدين الأيوبي- فيقول على لسانها : " المملوكة الريحانة بغلة الوهراني تقبل الأرض بين المولى عز الدين حسام، أمير المؤمنين نجاه الله من حر السعير، و عظم بذكره قوافل العير، و رزقه من القرط و التبن و الشعير، ما وسق مائة ألف بعير، و استجاب فيه صالح أدعيته الجم الغفير من الخيل و البغال و الحمير" .[4]

بيد أن بغلة الوهراني ليست كبغلة ابن زيدون التي كانت تنقد الشعر و الشعراء، و انما هي بغلة مسكينة تشكو سوء حالها للأمير، و سوء حال صاحبها الذي" أنهكته الفاقة و سوء التدبير، فحكى للأمير ما تعانيه من مواصلة الصيام و سوء القيام و التعب بالليل و الدوام نيام، قد أشرفت المملوكة على التلف، و صاحبها لا يحتمل الكلف، فشعيره أبعد من الشعر في العبور لا وصول إليه و لا عثور...و التبن أحب اليه من الإبن ...و أما الفول فمن دونه باب مقفول". [5]

و الحق وإن كانت الرسالة تبدو في ظاهرها بريئة من المماس لشخص الأمير ،لما فيها من دعابة صافية، تكفل الوهراني بترجمتها فقط على لسان بغلته، غير أن العرف الملكي و الأميري لا يسمح لجمهور العامة مخاطبة الأمراء إلا وفق إجراءات برتوكولية، فكيف بنا إذا كان الخطاب صادرا من بغلة للأمير مباشرة .

04- ركن الدين محمد بن محمد بن محرز الوهراني: منامات الوهراني ومقاماته ورسائله، تحقيق ابراهيم شعلان ومحمد نغش، منشورات الجمل، ط 01، ألمانيا، 19984. ص 90.-

5- المصدر نفسه ص 92/91/90.

ب/ نقد أدعياء التصوف :

جاهر الوهراني بعدائه الصريح لأولئك الذين لبسوا جبة التصوف، و أفئدتهم خواء من الزهد و التقوى، بل و جعلوا من هذا الخلق السامي مطية للتكسب، و التواكل، و العجز، و الكسل، فلم يجد كاتبنا بدا من أن يشهر سوط سخريته اللاذعة بهاته الفئة المريضة من المجتمع، فقد صورهم تصويرا كاركاتوريا لا يضاهيه في ذلك إلا الجاحظ في رسالة التربيع و التدوير، و التي عبث فيها بخصمه أحمد بن عبد الوهاب، فقد صور الوهراني في منامه الكبير هؤلاء المنتسبين للتصوفن وقد سأل عن حقيقتهم الرسول صلى الله عليه و سلم، لما راعه منظرهم (فلما انتهى –يقصد الرسول صلى الله عليه و سلم– إلى شاطئ المشرعة وقف عندها، و تقدمت إليه الصوفية من كل مكان، و على أيديهم الأمشاط، وأخلة الأسنان، و قدموها بين يديه، فقال الرسول صلى الله عليه و سلم : من هؤلاء ؟ فقيل له: هؤلاء قوم من أمتك غلب العجز و الكسل على طباعهم، فتركوا المعايش، و انقطعوا إلى المساجد يأكلون و ينامون .

فقال : فبماذا كان ينفعون الناس و يعينون بني آدم : فقيل له : و الله و لا بشيء البتة، و لا كانوا إلا كمثل شجر الخروع في البستان يشرب الماء و يضيق المكان. فساق و لم يلتفت إليهم[6]

ففي قوله و لم يلتفت اليهم إشارة ذكية من الوهراني تدل على أن النبي صلى الله عليه و سلم أعرض عنهم و لم يكلمهم، بسبب سلوكهم المنحرف الذي ابتعد عن الفهم السليم لمعنى الإسلام و روح الشرعية السمحاء، التي ترفع العمل إلى مصف العبادات، وفقا للنصوص القرآنية و الأحاديث الشريفة، مثلما يفهمه بعض أدعياء التصوف،الذين اختزلوا الدين في لحى طويلة، وسبح مرقومة، و تواكل مذموم، و عطل عن العمل، وتطفل على الناس في الرزق.

ج/القضاة :

لقد شنع الوهراني بجمهور القضاة في عصره، و مرغهم في وحل السخرية و التهكم، الذي يصل في بعض الأحيان درجة الهجاء المقذع، فقد صورهم في أبشع و أقذع الأوصاف، فهم يصلحون لكل شيء على وجه البسيطة، سوى أن يكونوا قضاة عدل يحكمون بين الناس بالقسطاس. ففي رسالة كتبها على لسان نائب القاضي الفاضل بدمشق إلى قاضي الفاسقين — يقصد القاضي الفاضل– الذي يبدو أنه انتقل الى مصر و أناب أحد القضاة الذي كان يقيم الحدود على السارق و الخمار و الزاني، و هو أمر لم يكن موجودا في عهد

[6] المصدر السابق ص 49/48.

القاضي الفاضل يوم كان بدمشق، يقول الوهراني إلى قاضي الفاسقين: " أطال الله قرون مولاي القاضي الأجم الفاضل، الإمام العالم، قاضي الفاسقين، مفتي الفسقة، تاج الزناة، عز العلوق، مجال المشارب، قطب الدساكر، مقدم الخرابات، رئيس المواخير، فخر البدود" [7]

ويبث الوهراني نار الشوق إلى القاضي إمام الفاسقين، و يتملكه الحنين إلى تلك الأيام التي كان فيها القاضي آمرٌ ناهٍ بدمشق، حيث لا حدود و لا تعزير على منتهلك الحرمات، العابث بالقيم، و في ذلك تعريض صريح بالانحلال الخلقي الذي كان سائدا في عصره، و الذي كان بتشجيع من القضاة أنفسهم. ثم يواصل الوهراني شرح أسباب ودواعي مكاتبته للقاضي الفاضل: " كتبت هذه الأحرف إليه يسر الله معاصيه، و بارك له في مخاصيه، أشكو إليه ما عندي من الشوق إلى طلعته و صلعته ....فلا تسأل عما يقاسيه الخادم من جور العلوق، و الاهتمام المشوق، و بعد ما بين القهوة و الحلوق، وما قد ابتلينا من القضاة المخالفين، و الأئمة المسخفين، من إقامة الحدود، و تعطيل البدود ، وتحريم الزمر و تبطيل أبواب الخمر، و ضربه للسكران، و لو أنه الحكيم بن المطران ، و أخذهم أشد العهود على النصارى و اليهود، فصارت القهوة من أخلاط الجسد، و أعز من جبهة الأسد، لا تبصر في الليالي إلا كطيف الخيال، و لا في النهار إلا عند إراقتها في الأنهار، و نحن معهم في الشدة إلى أن تنقضي هذه المرة ، و عند التناهي يكون الفرج [8]

و يواصل الوهراني سخريته اللاذعة على لسان نائب القاضي، الذي يستبطئ عودته في الرجوع قبل أن يتوب العاشقون، و يرعوي الفاسقون، و بذلك يقع المحضور فتكسد بضاعة المعاصي في أسواق الشام، يقول الوهراني: " فإن كان لك حاجة لولايتك فاطلع علينا برايتك، من قبل أن يسلوا العاشقون، و يتوب إلى الله الفاسقون، فيتغير الهندام، فتكسد أسواق المعاصي بالشام و السلام"[9]

وقد كتب الوهراني رسالة القاضي نسخة عقد تقليدي عن قاضي الفاسقين إلى أبي الثنا محمود بن يحي بن أفلح اللخمي المعروف بأتكوا: " هذا عقد قاضي قضاة الفاسقين، وناصر دين العاشقين، و إمام العصاة و المنافقين ....إليك أيها القاضي الأجم، فخر القيادة وتاجها، قطب المعاصي وسراجها، عز العلوق

[7] نفسه ص 144.

8 منامات الوهراني ص 146.

9 المصدر نفسه.

وعمادها، جمال الفسقة و عينها، شرف الزناة و زينها، أبو الثنا محمود بن يحي بن أفلح اللخمي، أدام الله لك السرور، و متعك بالغفلة و الغرور".[10]

ففي هذه الرسالة نجد الوهراني يستنطق القاضي إمام الفاسقين ليوصي قاضيه ابن اللخمي بوصايا تحمل طابع –سري جدا– حتى يتسنى له القيام بشؤون وظيفته على أكمل وجه، و من بين هاته الوصايا التي يشيب لها الولدان، قول الوهراني على لسان الموصي: " و لما انتهى إلينا أيها القاضي الأجم، أطال الله قرونك، و أدام في الخمور رهونك، وضربك بالمخاصي، و فسقك بالأداني والأقاصي، و أنك من أكذب الناس لهجة، وأخبث العالم مهجة، و أبعدهم عن المعرفة حسا، و أبخلهم على المال نفسا، تتلو صحف الأكاذيب، وتدأب في المعاصي مثل الذيب، استخرت الله تعالى، وقدمتك على القضايا السرية بثغر الاسكندرية، فاحذر من الاضطهاد، و شمر عن ساق الاجتهاد، و لا تترك في أمور الفسق مطلقا، و لا بابا من أبواب المعاصي مغلقا[11]

و أمرك في أول الأمر أن تنظر في أبواب الخمر فمن صرفها صرفه في أعمالك، و من قتلها فاقتله بنعالك، و احكم في مجالس الشرب بهواك، و لا تتكل فيها على سواك ".[12]

و في موضع آخر يتندر الوهراني بطائفة من العلماء و الفقهاء، لكن هذه المرة جاءت السخرية على شكل سؤال أشكل على صاحبه، فوجهه إلى جمهور الفقهاء مستفتيا إياهم في هذه المسألة العويصة، فيقول: " ما تقول السادة الفقهاء رضي الله عنهم و أرضاهم في رجل يرى أنه من ائمة الشرع، و من أرباب الأصل و الفرع، ويعتقد أن له الدرجة المنيفة في مذهب أبي حنيفة، و يقول لو جادلت مالكا لكنت له ما لكا .. و لو أدركت ابن حنبل لكنت أتقى منه و أنبل " [13]

و بعد أن يعدد منزلته، وادعاءه للعلم، يوضح بوائق هذا المدعي فيقول: " يأخذنا بأرخص الأقوال في استباحة الأموال، إن ولي المدارس صير العلم كالطلل الدارس، و إن دخل الجامع صافع فيه و جامع، و إن سكن المساجد طلب الرقص و الشاهد، يصلي قاعدا من غير ألم، و يبول قائما على فرد قدم، و ينام عن ليلة القدر، يستحل بيع القبلة بقُبلة، و مكة بصكة، صير مال الحبس و الأوقاف لربات الشنوف و

10 نفسه ص 178/177/176

[11] المصدر السابق.

[12] مقامات الوهراني ص 178/177.

[13] المصدر نفسه ص 130.

الأرداف، و قد أفرغ في الوطء قواه، و اتخذ إله هواه، فغدا بلا عقل و لا علم، و أظله الله على علم، و ختم على سمعه و قلبه، و جعل على بصره غشاوة، فبينوا لنا وفقكم الله هل يجب للسلطان أن يضرب على يديه، أو يقره على ما هو عليه، مأجورين مُثابين إن شاء الله تعالى".[14]

د/ الشيعة:

لم يكن المتصوفة وحدهم من اصطلى بنار سخرية الوهراني، ولسانه السليط، بل هناك طائفة أخرى نالت بدورها نصيا وافرا من سخريته وتهكمه، و إن كان ابن محرز صرح وفضح الطائفة الأولى، فقد اكتفى بالتعريض بالطائفة الثانية ألا وهي طائفة الشيعة، التي تعتقد بالإمام الغائب، يقول الوهراني في رسالة الى ابن مسلم الشاهد و كان من الإمامية في تهكم واضح : " وحق الحجاب و الكتاب، و البغلة و السرداب، و الإمام القائم، الحي الدائم الذي لا يموت ولا يفوت، ولا يحتاج الى القوت، ما أحدثت في ملكي هذا حدثا يوجب الفسخ" [15] ، ثم يستطرد الوهراني بعد أن أقسم بأغلظ الأيمان عند الطائفة الشيعة، على أنه لم يقل شيئا يُقوض أركان مملكتهم المبنية على عقيدة متناقضة، فيقول في صورة إنسان برئ تطارده لعنة الاتهامات، حتى أنه ينفي أنه قد قال يوما أن أهل السنة يدخلون الجنة : " وإلا قلت أن أهل السنة يدخلون الجنة، و أن مذهب الشيعة كسراب بقيعة، و إلا حشرني الله مع يزيد إذا قالت النار هل من مزيد، وسلط علي أنواع البلاء، و لا حشرني مع شهيد كربلاء".[16]

هـ/ الكتاب و الشعراء:

يبدو أن الوهراني بقي شيء في نفسه اتجاه طائفة القضاة و الكتاب، و ذلك أنه لما طمح الوهراني إلى الالتحاق بديوان الإنشاء في مصر –الذي كان يحتل المرتبة الثانية من حيث الأهمية في العصر الأيوبي بعد ديوان الحبس– وجد منافسين له في هذا المنصب، و على رأس هؤلاء القاضي الفاضل الذي نال نصيبا وافرا من سخرية و تشنيع الوهراني، و إلى هذا أشار ابن خلكان بقوله: " أحد الفضلاء الظرفاء، قدم من بلاده إلى الديار المصرية في أيام صلاح الدين رحمه الله تعالى، وفنه الذي يمت به صناعة الإنشاء، فلما دخل البلاد و

[14] نفسه ص 131.

15 المصدر السابق ص 140.

16 مقامات الوهراني : ص141.

رأى بها القاضي الفاضل و عماد الدين الأصبهاني الكاتب وتلك الحلبة، علم من نفسه أنه ليس من طبقتهم، و لا تتفق سلعته مع وجودهم، فعدل عن طريق الجد و سلك طريق الهزل" [17]

و ممن تعرض لهم الوهراني بسخريته الأديب النحوي اللامع التاج الكندي، جوابا على رسالة بعثها له، ففي أول الرسالة تبدو شحنة السخرية تسري مع كامل الرسالة، و ذلك بدءا من اعتراض الوهراني على استفتاح التاج الكندي بلفظة (تفتأ) والتي رأى فيها الوهراني تفاصحا وتقعيرا. يقول معلقا على ذلك:" وصلت رقعة مولاي تاج الدين أطال الله بقاءه بلفظ أحسن من نور تفتحه الصبا ...يشهد له من رآه و سمعه أنه كلام رجل عالي الهمة، ريان من الأدب و الحكمة، لولا تفاهمه في أول لفظة فيه وهي قوله : ما –تفتأ – فإنها و إن كانت فصيحة نطق بها الكتاب العزيز، فإنها ثقيلة الحركة، قليلة الاستعمال، لم يأت له بعدها من وحشي اللفظ ما يناسبها،كأنها من حديث سكان نجد وتهامة، عليها روايح الشيح و القيصوم، فلو أن الشنفرى يخاطب عمرو بن براق بها ما فهمها إلا بعد جهد جهيد[18]

إلى غاية اللحظة نلفي الوهراني رحيما بالتاج الكندي، غير أن صبره لم يدم طويلا، فقد جر تاج الدين الكندي إلى مستنقع السخرية و مرغه في وحل التهكم، و سبب ذلك كله بيت في قصيدة له يقول فيها :

سبقت الى غايات كل فضيلة تعز على طلابها العرب و العجما

فلا شك أن كل يقرأ هذا البيت، و يقرأ تعقيب الوهراني على ذلك، يشفق على التاج الكندي و هو رميم، يقول الوهراني مراسلا صديقا له : " عبد مولاي فلان الأجل أطال الله بقاءه، ينهي أنه أبصر اليوم للكندي قصيدة ميمية بمدح فيها نفسه، ويفتخر فيها بمعرفة سائر العلوم، فتأملها الخادم تأمل منتقد، فوجده قد أقام الدليل و البرهان على نفسه أنه قليل العقل، قليل الحياء، قليل الفضل، قليل التوفيق، فأما دليله على قلة عقله، فإن الرجل العاقل لا يفتخر بما يعلم فضلا عما لا يعلم، و أيضا فإن كل نوع من العلوم ليس له آخر، و لا يدعي الإحاطة به إلا جاهل، وقد قال هذا في هذه القصيدة :

سبقت الى غايات كل فضيلة

17 وفيات الأعيان: مصدر سابق، ص 385.

18 مقامات الوهراني : ص 132.

فقام الدليل بهذا على أن قط البيت أعقل منه، لأن ذلك يتغوط ويستتر، و هذا يتغوط وينشر، ثم لا يقتنع بذلك حتى يدسه في أنوف الناس، و يقول : شموا [19]

أي وصف هذا، وأي قياس هذا، و أية سخرية أنكى من هذه ، فقد وازن الوهراني بين تاج الدين الكندي- وهو من هو على شرف مكانته و جلال قدره- وبين قط البيت ثم انتصر له الوهراني، وفضله على الأول في احتجاج منطقي، واستدلال عقلي، لا شك أنه يقنع جمهور واسعا من القراء .

و بعد أن يستدل الوهراني بآراء النقاد كابن رشيق المسيلي، و غيره من بلغاء العرب، وشعرائهم، و فصحائهم ،ليقوض كل بيت من قصيدة الشاعر تاج الدين الكندي، فيتوقف عند قوله مثلا :

كذلك عادى في العدى و الندى فندما

يعلق الوهراني على هذا قائلا : " فإنه في غاية الركة و الفتور لدخول لفظة عادى في الذي، لو ذكرها الحطيئة لصفع عليها بالنعال، ثم هذا الاتفاق النحس الذي وقع له في هذا القسم من تكرير حرف الدال في كل كلمة منه، حتى كأنه قد بايع على ذلك برهن ثقيل، ألا ترى أنه لا ينطق به اللسان حتى تصطك له الأسنان ؟ و قد قال ابن رشيق في العمدة: إنه من أكبر العيوب في الشعر، و مع هذا كله فإن القسم الثاني لا يناسب القسم الاول، لأنه لم يتقدم لنا في القصيدة" [20]

ثم ما يلبث يعرج الوهراني من جديد على الخطأ القاتل في نظره، ويعبث بخصمه عبثا لا يملك معه القارئ إلا أن يشفق على الكندي بعد أن تكون سيول الدموع قد انهمرت من شدة الضحك، وذلك بسبب قول الشاعر :

سبقت الى غايات كل فضيلة ...تعز على طلابها العرب و العجما

هذا البيت المصيبة العظمى، و الطامة الكبرى، و ليس ينبغي أن يجاوب في هذا البيت إلا بجواب الفتى الأمي لعدي ابن الرقاع، و هو أن يحضره بعض السلاطين و يقول له :

أنت قلت : سبقت إلى غايات كل فضيلة ؟

19 المصدر نفسه ص 223/222.

20- نفسه ص 225.

فيقول له نعم، فيرمي له قوسا و يقول له جُرّ هذا القوس ، فيقول ما أقدر ، فيقول اصفعوه ، فيصفع، ثم يقدم له فرسا و رمحا و درعا، و يقول له : قاتل هذا الغلام بهذا السلاح، فيقول ما أقدر و لا أحسن، فيصفع، فيقول له : حل لنا شكلا من اقليدس، فيقول : لا أعلم فيصفع، فيقول له مسألة من المجسطى، فيقول: لا أعلم فيصفع فيقول له : حل لنا كوكبا من زيج البتاني، فيقول: لا أعلم فيصفع ، فيقول: له مسألة من النجوم فيقول: لا أعلم فيصفع، فيقول له مسألة من الحساب، فيقول: لا أعلم فيصفع، فيقول: له مسألة من الفرائض، فيقول: لا أعلم فيصفع، فيقول: له مسالة من الفقه، فيقول: له لا أعلم فيصفع، فيقول له : يابن عشرة آلاف ...فأي شيء تعلم حتى تقول سبقت إلى غايات كل فضيلة ؟

فيقول: أعلم شيئا من النحو و التصريف لا غير، فيقول له و لأجل النحو و التصريف تقول: سبقت إلى غايات كل فضيلة.[21]

ختاما لا نملك إلا أن نقول إن شخصية فذة بوزن ركن الدين ابن محرز الوهراني، لم تنل حظها من لدن الباحثين سواء في الحقل الأدبي والنقدي، أو المشتغلين في الحقل المعرفي السيكولوجي للكشف عن الأسباب والدوافع وراء إنتاج الخطاب الساخر الذي يشكل السمة الأبرز في تراث الوهراني من خلال مقاماته ورسائله ومنامه الطويل.

الهوامش:

01- عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر- مؤسسة نويهض الثقافية- بيروت- لبنان- ط02- 1980- ص 350.

02- أبو العباس شمس الدين ابن خلكان: وفيات الأعيان و أنباء الزمان، تحقيق إحسان عباس، مج 03، دار صادر، بيروت، 1978، ص

03- الصفدي: الوافي بالوفيات ص 764/696

04- 04- ركن الدين محمد بن محمد بن محرز الوهراني: منامات الوهراني ومقاماته ورسائله، تحقيق ابراهيم شعلان ومحمد نغش، منشورات الجمل، ط 01، ألمانيا، 1998. ص 90.- 1

05- المصدر نفسه ص 92/91/90.

06- المصدر السابق ص 49/48.

07- نفسه ص 144.

08- منامات الوهراني ص 146.

21 مقامات الوهراني ص 229/228.

09– المصدر نفسه.

10– نفسه ص 177/176.

11– نفسه.

12– مقامات الوهراني ص 178/177.

13– المصدر نفسه ص 130.

14– نفسه ص 131.

15– نفسه ص 140.

16– مقامات الوهراني : ص141.

17– وفيات الأعيان: مصدر سابق، ص 385.

18– مقامات الوهراني : ص141.

19– المصدر السابق ص 223/222.

20– نفسه ص 225.

21– مقامات الوهراني ص 229/228.